مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية
King Faisal Center for Research and Islamic Studies

دراسات

ربيع الآخر ١٤٣٧هـ/ يناير ٢٠١٦م

«حزب الله».. إلى أين أنت ذاهب؟
التورّط الإقليمي لحزب الله اللبناني

منحدر زلق بين المقاومة العَقَديّة
ضد إسرائيل والتكيّف الإستراتيجي في سوريا

سيباستيان ماير
باحث – مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية

ترجمة
ماريا المنجد

«حزب الله».. إلى أين أنت ذاهب؟

التورّط الإقليمي لحزب الله اللبناني

منحدر زلق بين المقاومة العَقَديّة ضد إسرائيل والتكيّف الإستراتيجي في سوريا

سيباستيان ماير

باحث – مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية

ترجمة

ماريا المنجد

ح مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٣٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مايز، سيباستيان

«حزب الله».. إلى أين أنت ذاهب؟ التورّط الإقليمي لحزب الله اللبناني .... / سيباستيان مايز؛ ماريا المنجد. - الرياض، ١٤٣٧هـ

٣٢ص؛ ١٦,٥×٢٣سم (دراسات؛ ٧)

ردمك: ٢-٨٦-٨٠٣٢-٦٠٣-٩٧٨

١- **حزب الله (لبنان) أ. المنجد، ماريا (مترجم) ب. العنوان ج. السلسة**

ديوي ٣٢٩,٩٥٦٦ ١٤٣٧/٥٢٤٤

رقم الإيداع: ١٤٣٧/٥٢٤٤

ردمك: ٢-٨٦-٨٠٣٢-٦٠٣-٩٧٨

هذا الإصدار هو أحد إصدارات مبادرة مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية الجديدة (مشروع إستراتيجية الشرق الأوسط). والهدف من هذا المشروع هو إجراء البحوث والتحليلات المتعمّقة التي تقع ضمن نطاق الإستراتيجية الإقليمية الكبرى للأمن والدفاع. وتركّز هذه الدراسة -في ضوء الأحداث الأخيرة في الجمهورية العربية السورية- في تقصّي أسباب الاضطرابات المستمرة، ودراسة التداعيات الإقليمية الناتجة منها الواضحة للعيان في مختلف أنحاء بلاد الشام، وتحليل أهداف السياسة العامة للدولة، والجهات الحكومية الفرعية، والأطراف الدولية الفاعلة.

تحرير ومراجعة لغوية

سيد الجعفري

تصميم وإخراج

أزهري النويري

ملخص الدراسة

ترصد هذه الدراسة تداعيات تدخّل حزب الله اللبناني في الأزمة السورية، وانعكاسات ذلك إقليمياً، وتقارن بين ادّعاءات الحزب مقاومته العَقَديّة إسرائيل وتكيّفه الإستراتيجي في سوريا. وتستعرض الدراسة السياق التاريخي للمقاومة العَقَديّة ضد إسرائيل التي يدّعيها الحزب، وأسلوب عمله الإستراتيجي من خلال سياسة (التزام الردع غير المتكافئ)، ثم تأقلمه الإستراتيجي عبر التدخّل والالتزام في سوريا في إطار أسلوب العمل الإستراتيجي العام للحزب، وهو المحافظة على البُعد الإستراتيجي للمعسكر الشيعي الدولي الموالي للأسد. ثم تحاول الدراسة تقديم رؤية مستقبلية لوضع الحزب بعد غرقه في المستنقع السوري، وتطرح سؤالاً عما إذا حدث تصعيد جديد للحزب مع إسرائيل؛ فعندها سيضطر الحزب إلى التعامل مع جبهتين، وهو ما يؤدي إلى تشتيت الحزب وإنهاك قدراته بشكل كبير، ودفع لبنان إلى حافة الانهيار.

إخلاء مسؤولية

تعكس هذه الدراسة ومحتوياتها تحليلات المؤلف وآراءه، ولا ينبغي أن تُنسب وجهات النظر والآراء الواردة فيها إلى مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ويُعدّ المؤلف وحده مسؤولاً عن أيّ أخطاء ترد فيها.

المحتويات

مقدمة	٩
١أ- السياق التاريخي للمقاومة العَقَديّة ضد إسرائيل	١٠
١ب- أسلوب العمل الإستراتيجي: التزام الردع غير المتكافئ	١٤
٢أ- التأقلم الإستراتيجي: التدخّل والالتزام في سوريا	١٩
٢ب- أسلوب العمل الإستراتيجي: المحافظة على البُعد الإستراتيجي للمعسكر الشيعي الدولي الموالي للأسد	٢٢
آفاق مستقبلية	٢٧

مقدمة

كان شعار حزب الله منذ تشكيله هو (المقاومة الراسخة والدائمة للاحتلال الإسرائيلي للأراضي اللبنانية)، وهو الشعار الذي كان سبب وجود الحزب منذ تأسيسه في بدايات ثمانينيات القرن الماضي، لكن حسن نصر الله -الأمين العام للميليشيا الشيعية- صرّح بشكل علني في إبريل عام ٢٠١٣م بأن مقاتليه يحاربون إلى جانب جنود نظام بشار الأسد العلوي الشيعي على الأراضي السورية. ومنذ ذلك الحين عمّق حزب الله ارتباطه بالمنطقة بشكل مضطرد من حيث الحجم والنطاق، وسجّل انتصارات تكتيكية ومكاسب محلية عزّزت موطئ قدم الأسد على أرض المعركة السورية، كما تكبّد الحزب خسائر جسيمة بين بعض الرُّتب العسكرية الأكثر خبرةً لديه. لذلك شكّل تدخّل حزب الله المتزايد في الأراضي السورية نقلةً نوعيةً في اصطفافه الإستراتيجي في سياق التقلّبات غير المسبوقة في بلاد الشام، ومع شعور الحزب بتداعيات الانقسامات السياسية للفصائل الداخلية في لبنان، والجبهات المعقّدة المنتشرة على حدود الدولة السورية، باشر مساراً خطيراً قد يؤدي به إلى عواقب وخيمة؛ فإضافةً إلى تحمّله أعباء مزدوجة؛ من المحافظة على المقاومة ضد إسرائيل من جهة، وحشد الموالين للنظام في سوريا من جهة أخرى، يواجه الحزب مأزقاً في جبهته الجنوبية، وفي غرقه المتزايد في المستنقع السوري الذي طال أمده.

عرض عسكري لأعضاء حزب الله اللبناني (نيويورك تايمز).

ووفقاً لأخبار بثّتها قناة المنار الفضائية التابعة لحزب الله، فإن سمير قنطار -أحد أشهر الإرهابيين المنتمين إلى حزب الله- قُتل يوم السبت ١٩ ديسمبر عام ٢٠١٥م على إثر غارة جوية إسرائيلية مزعومة ضربت معقلاً لموالين للأسد في حيّ جرمانا جنوب شرق العاصمة السورية دمشق. ونال قنطار، الذي ينتمي إلى المجتمع الدرزي في لبنان، شهرته بعد قضائه ثلاثين عاماً في أحد السجون الإسرائيلية نتيجة تورّطه في مقتل ثلاثة إسرائيليين في أثناء هجوم نفّذته جبهة التحرير الفلسطينية عام ١٩٧٩م على بلدة نهاريا الإسرائيلية، وأُطلق سراحه في نهاية الأمر عام ٢٠٠٨م في صفقةٍ لتبادل الأسرى بين إسرائيل وحزب الله بعد مفاوضات مع دائرة الاستخبارات الاتحادية الألمانية نتج منها نقل رفات اثنين من الجنود الإسرائيليين مقابل جثث مئتي عسكري لبناني وفلسطيني، وإطلاق سراح خمسة مناضلين من منظمة التحرير الفلسطينية، كان سمير قنطار أحدهم.

حقيقةً، يشبه هذا الحدث الأخير بشكل تامّ حدثاً جرى في العام الماضي؛ ففي ١٢ يناير عام ٢٠١٥م شنّت القوات الجوية الإسرائيلية غارةً على قافلة عسكرية تابعة لحزب الله في الجنوب الغربي لضاحية القنيطرة، وانتشر خبر مقتل الجنرال محمد علي الله دادي، وهو قيادي بارز في الوحدة الخارجية الخاصة من قوات القدس التابعة لفيلق الحرس الثوري الإيراني. وأدّت هذه الغارة المزعومة على مزارع الأمل إلى مقتل جهاد مغنية نجل الراحل عماد مغنية قائد استخبارات حزب الله، الذي قُتل في انفجار سيارة في العاصمة السورية دمشق في فبراير عام ٢٠٠٨م. وبعد نحو أسبوعين من هذا الحادث، في ٢٩ يناير عام ٢٠١٥م، لم يخيّب حزب الله التوقعات، ونصب كميناً لمركبات عسكرية إسرائيلية نتج منه مقتل جنديين، وجرح سبعة آخرين، في منطقة قريبة من مزارع شبعا في مرتفعات الجولان بمنطقة الحدود الثلاثية بين إسرائيل ولبنان وسوريا.

١أ- السياق التاريخي للمقاومة العَقَديّة ضد إسرائيل

بدأ صعود حزب الله بوصفه أهم الفاعلين غير الحكوميين المتحالفين مع إيران وسوريا منذ ربع قرن مضى، في أعقاب إطاحة الثورة الإيرانية بالشاه محمد رضا بهلوي عام ١٩٧٩م. وجمع آية الله الخميني شخصياً علماء الشيعة اللبنانيين حوله؛ ليقوم بإنشاء كيان مهمّ بديل لحركة أمل المهيمنة آنذاك في لبنان. وبرز حزب الله، المتمسك بشدة بالمعتقد الشيعي، بوصفه

قوة مقاومة عنيفة شبه عسكرية أصبح لها تأثير في الساحة السياسية اللبنانية بعد اتفاقية الطائف، وبلغ الحزب ذروته بوصوله إلى الانتخابات البرلمانية اللبنانية عام ١٩٩٢م، محقّقاً نصراً تمثّل في الدعم الكبير الذي تمتّع به الحزب بعيداً من الانقسامات الطائفية اللبنانية، إضافةً إلى أن عمليات التوغّل الإسرائيلي عامي ١٩٧٨ و١٩٨٢م أوجدت مسرحاً جديداً في لبنان تتصارع فيه معاً القوى التابعة لإسرائيل وسوريا البعث في بلاد الشام، ومحاولة إسرائيل والنظام السوري التأثير في المشهد السياسي اللبناني الداخلي، كلٌّ لمصلحته؛ فقد قال إيهود باراك -رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق- في اعترافه الشهير: «عندما دخلنا لبنان لم يكن حزب الله موجوداً، واستقبلنا شيعة الجنوب بالأرز والورد. وُجودنا هناك هو ما أوجد حزب الله»[١]. ونتيجةً لذلك، مهّد التدخل السوري والإسرائيلي الطريق أمام التشدّد الطائفي والتفتّت الاجتماعي في لبنان؛ فبينما حاول الإسرائيليون الزحف نحو مشارف بيروت لدعم الميليشيات المسيحية أرسلت إيران ١٥٠٠ مقاتل من الباسدران، أو الحرس الثوري، إلى وادي البقاع اللبناني عبر الأراضي السورية، وهو ما وفّر أرضاً خصبةً لاحتضان حزب الله. وتبنّى حافظ الأسد -رئيس سوريا العلمانية اسماً- موقفاً براجماتياً/ نفعياً في نهاية المطاف على الرغم من تحفّظاته الأوّلية وقلقه من التوغّل الإسلامي لطهران، فتعاون مع إيران مظهراً جنكته الدبلوماسية في ذلك الوقت بالمبادرة بدعمها مادامت ستتبع (الخط السوري)[٢]. وأُعيد تفعيل التعاون بين طهران ودمشق في وقت لاحق بسبب عدائهما المشترك عراق صدام حسين، وتمّ إنشاء محور شيعي يمتد من إيران إلى سوريا، وصولاً إلى جنوب لبنان والحدود مع إسرائيل، وعمل حزب الله على خطوط هذا المحور نيابةً عن إيران؛ لتثبيت موطئ قدم جيوسياسي لطهران في بلاد الشام. وخدمت جهود حزب الله المصالح السورية أيضاً في أثناء سعيه إلى امتلاك «حصة أكبر من الكعكة الطائفية»[٣] داخل لبنان، ومقاومته الدؤوبة للاحتلال الإسرائيلي، في ظلّ إصرار دمشق على تحرير جنوب لبنان ومرتفعات الجولان السورية التي ضمّتها إسرائيل إلى قبضتها. وبقيت المحادثات الإسرائيلية- السورية المباشرة

(1) Augustus Richard Norton, *Hezbollah: A Short History* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 2007), 33.
(2) Ibid., 123.
(3) Amal Saad-Ghorayeb, *Hizbu'llah: Politics and Religion* (London: Pluto Press, 2001), 112, 113.

مسألةً افتراضيةً إلى عقد المحادثات التي جرت في جنيف في مارس عام ٢٠٠٠م، وبدا أن إبرام تسوية بخصوص مستقبل مرتفعات الجولان في متناول اليد آنذاك، ومع ذلك هدم حافظ الأسد جميع الجسور مع إسرائيل، تاركاً المفاوضات الدبلوماسية أمام طريق مسدود مرة أخرى[٤]. وتجدر الإشارة هنا إلى أن المحور الشيعي لا يتمحور فقط حول العداء المشترك لأعضائه إسرائيل؛ فمع تكشّف الواقع السياسي الدقيق في لبنان في أعقاب ثورة الأرز، وتبعيته للبرنامج السوري، نجا حزب الله بأعجوبةٍ من مواجهة التداعيات المحلية للتفكّك الاجتماعي والقطيعة الطائفية التي كانت ستؤدي في نهاية المطاف إلى نزع أهم أدواته، وهو الجناح العسكري. فعلى الرغم من هذه التهديدات استمرّ حزب الله في التأثير في السياسة اللبنانية بحزم؛ لأنه أصبح يمتلك حقّ النقض بشكل مؤثّر ضد حكومة الوحدة الوطنية عام ٢٠٠٨م. والأهم من ذلك أن النزعات الوطنية المحلية المندفعة بشكل صارخ في لبنان لم تؤثّر بشكل كبير في قدرات حزب الله شبه العسكرية، ولم تفقده بريقه؛ فقد اعترفت الحكومة اللبنانية بحقوق حزب الله في اللجوء إلى جميع السُّبل الممكنة لمقاومة ما عدّته احتلالاً إسرائيلياً مستمراً للأراضي اللبنانية في مزارع شبعا.

علم حزب الله يعتلي نظام صواريخ باليستية (المصدر: وكالة أنباء فارس).

(4) Eyal Zisser, "Israeli-Syrian Peace Negotiations (December 1999–March 2000): A Missed Opportunity?," in *The Middle East Peace Process: Vision versus Reality*, ed. Joseph Ginat, Edward J. Perkins, and Edwin G. Corr (Brighton: Sussex Academic Press, 2002), 229.

لم يكن تسلّم إيران صواريخ أرض- جو الروسية من طراز SAM عامي ٢٠٠٥ و٢٠٠٦م لحماية منشآتها النووية من هجمات جوية محتملة من جانب خصومها المعروفين أمراً سرياً، وبالمثل كانت الأسلحة المضادة للدبابات التي استخدمها حزب الله، التي غيّرت قواعد اللعبة خلال حرب لبنان الثانية، روسية المنشأ، وتمّ تسليمها إيران، ثم نُقلت عبر سوريا إلى جبل لبنان الذي تعدّه بوابةً[٥]؛ لتصل في نهاية المطاف إلى جنوب لبنان. وسمحت هذه الأسلحة، إضافةً إلى التمويل الإيراني، ونقل الأسلحة المستمر إلى حزب الله، بزيادة تغلغل الحزب في البنية السياسية في لبنان من خلال توفير الرعاية الاجتماعية للشيعة، وإنعاش أوضاعهم المعيشية. ليس هذا فحسب، بل أيضاً تعزيز قدرات الحزب وقوته التي يفرضها بالإكراه والتهديد من خلال التطوير النوعي لترسانته من الصواريخ القصيرة المدى والمتوسطة والبعيدة. وإذا نظرنا إلى تزايد حجم مخزون الصورايخ الباليستية لدى حزب الله فإن الحزب أصبح قادراً على نقل ترسانته المحصّنة في جنوب لبنان إلى ما وراء نهر الليطاني شمالاً، وأثمرت هذه الخطوة عدة فوائد للحزب: أولاً أن حرب عام ٢٠٠٦م قدّمت له دروساً إستراتيجيةً؛ إذ أدركت إسرائيل أن ترسانة حزب الله الضخمة من الصورايخ المتوسطة المدى والبعيدة تمثّل تهديداً جوهرياً لمناطقها ذات الكثافة السكانية العالية، وهو ما حدا بها إلى تدمير تلك الصواريخ بعد غارات جوية شنّتها خلال المراحل المبكّرة جداً من الحرب[٦]. ثانياً أن إعادة تسليح حزب الله في مناطق خارج جنوب لبنان مكّنته من الالتفاف على شكوك قوات الأمم المتحدة المؤقتة في الجزء الجنوبي من البلاد والإفلات من رقابتها[٧]. ونتيجةً لذلك استمرت قدرات حزب الله في النمو كماً، وأصبح عدد الصواريخ التي يمتلكها يتجاوز العدد الذي كان موجوداً لديه قبل الحرب[٨]، كما استطاع حزب الله الحصول على مساعدات مالية من طهران تحت

(5) Norton, *Hezbollah*, 323.
(6) Anthony H. Cordesman, *Arab-Israeli Military Forces in an Era of Asymmetric Wars* (Stanford, CA: Stanford University Press, 2008), 4–7.
(7) Howard Schneider, "Hezbollah's Relocation of Rocket Sites to Lebanon's Interior Poses Wider Threat," *Washington Post*, January 23, 2010, http://goo.gl/z7ZqJu.
(8) "Hezbollah Reportedly Stockpiling 40,000 Rockets," *Haaretz*, August 5, 2009.

شعار (جهاد البناء)، و(مؤسسة بناء الجهاد المقدس)، وكثّف الحزب جهود الإغاثة، وسعى إلى رفع شأنه أمام الجمهور اللبناني[٩].

١ب- أسلوب العمل الإستراتيجي: التزام الردع غير المتكافئ

باختصارٍ، تستند النقطة الأساسية هنا إلى إدراك أن الصراع بين إسرائيل وحزب الله هو نتيجة تنافس إستراتيجي جوهري يظهر للعيان جنباً إلى جنب مع أبعاد ذلك التنافس المكانية والمساحية والأيديولوجية الأوسع نطاقاً[١٠]؛ فالتنافس مساحي؛ بمعنى أن الاحتلال الإسرائيلي الفعلي لجنوب لبنان الممتد خمس عشرة سنة (١٩٨٥- ٢٠٠٠م)، والخلافات المستمرة على وضع الأراضي في مرتفعات الجولان ومزارع شبعا، مازالا من دون حلّ، وهما يؤثّران في التطلّعات السياسية والإقليمية للبلدان الأخرى أيضاً[١١].

مزارع شبعا: نقطة الخلاف الجيوسياسي في منطقة الحدود الثلاثية بين إسرائيل ولبنان وسوريا

(9) Matthew Levitt, "What is Hizbullah? Domestic Aspects and International Influence" (Washington Institute for Near East Policy, Washington, DC, August 19, 2014), http://goo.gl/i8MdVl.

(10) Michael Colaresi, Karen Rasler, and William R. Thompson, *Strategic Rivalries in World Politics: Position, Space, and Conflict Escalation* (Cambridge: Cambridge University Press, 2007), 79, 80; see table 3.3, Types of strategic rivalry.

(11) See Asher Kaufman, *Contested Frontiers in the Syria-Lebanon-Israel Region: Cartography, Sovereignty, and Conflict* (Baltimore, MD: Johns Hopkins University Press, 2013).

ويتعلّق هذا الأمر بالمكان؛ لأن كلا الطرفين حاول التأثير في الفسيفساء السياسي اللبناني على مدى ثلاثين سنة لمصلحته، وزيادة نصيبه الخاصّ من النفوذ على حساب النظام الفرعي الإقليمي المحيط، حتى مع تعريض كلا الطرفين مصالح حلفائهما للخطر. أما البُعد الأيديولوجي، فقِيَم إسرائيل وحزب الله ومعاييرهما الأساسية، وإرادتهما السياسية، وروابطهما المجتمعية والدينية، دليل على التباين بينهما على طول خطّ الخصومة[١٢]. ولا ينفكّ أحد تلك الأنماط الثلاثة من الصراع عن الآخرين، وهو ما يزيد من صعوبة التوصّل إلى تسوية لهذا الصراع أضعافاً مضاعفةً؛ فعلى سبيل المثال: يبدو أن الحصول على تنازلات إقليمية أسهل من تنازل أيٍّ منهما عن جزء من نفوذه، ويبدو أن هذا الصراع الطويل الأمد ينحى نحو مزيدٍ من الجمود، والوصول إلى طريق مسدود، خصوصاً في ظلّ انعدام الثقة والشعور بالتهديد بسبب دوافع أيديولوجية. ويبدو في مثل هذه البيئة العدائية التي تترسّخ فيها الكراهية أن أيّ تقارب سياسي بينهما أمر غير وارد، ولن يكون هناك أيّ تقارب سياسي في أجواء يسودها العداء، وتتّسم بالكراهية المتأصّلة؛ لذلك فإن غياب مستويات العنف الرهيبة، مثل تلك التي شهدها عام ٢٠٠٦م، لا يشير بالضرورة إلى وضع حدٍّ للصراع؛ لأن أسبابه الأساسية لم تتغيّر أو تُحلّ، ولا تزال مفاهيمه متجذّرة[١٣]؛ فقد شعر حزب الله -في الواقع- خلال تصاعد حدّة التوتر عام ٢٠٠٦م أن ضعف الحكومة الإسرائيلية الجديدة هو الدافع وراء قيامها بحرب استنزاف على مستوى منخفض في المدة التي سبقت صيف عام ٢٠٠٦م، وثبت أن ذلك سوء فهم مدمّر؛ إذ قلبت الحكومة الإسرائيلية موازين القوى على حدودها الشمالية، وشرعت في تصعيد غير متوقّع، وكانت عمليات إطلاق النار المفرطة على أهداف لبنانية بمنزلة تذكيرٍ لما يمكن أن يحدث في أيّ نزاع مماثل مستقبلاً: عقاب فوريّ قاسٍ.

(12) See "Open Letter Addressed by Hizb Allah to the Downtrodden in Lebanon and in the World," February 16, 1985, in Norton, *Hezbollah*, appendix B, 167–87, also available at http://www.cfr.org/terrorist-organizations-and-networks/open-letter-hizballah-program/p30967. See also Joseph Alagha, *Hizbullah's Documents: From the 1985 Open Letter to the 2009 Manifesto* (Amsterdam: Pallas, 2011).

(13) Robert Jervis, "Deterrence and Perception," *International Security* 7, no. 3 (1982): 3–30; Richard Jervis, Richard Ned Lebow, and Janice Gross Stein, *Psychology and Deterrence* (Baltimore, MD: Johns Hopkins University Press, 1986).

مدينة قانا في جنوب لبنان عام ٢٠٠٦م (المصدر: مارك بيرسون).

وأظهر حزب الله من طرفه قدرةً ملحوظةً على تلقّي الصدمات، واستيعاب تكبّده خسائر جسيمة، موجّهاً بذلك رسالته الخاصة؛ فقد دفع الحزب الحرب في نهاية المطاف نحو أبعاد سيكولوجية بإظهاره القدرة على التحمّل، ودفعه نظيره الإسرائيلي إلى شنّ هجوم بري؛ فمن ناحيةٍ ساعد ذلك على تذكير قوات الدفاع الإسرائيلية بمغبّة المغامرة العسكرية التي يعود تاريخها إلى عام ١٩٨٢م؛ لأن الأحداث التي أدّت إلى الاجتياح الإسرائيلي للبنان كانت بمنزلة إرسال إنذار واضح، ومن الناحية الأخرى أثبتت المعارضة المسلحة التابعة لحزب الله خلال حرب عام ٢٠٠٦م، التي امتدت ٣٤ يوماً، أنها كانت تفوق قدرة إدراك إسرائيل لها محلياً ودولياً.

وعلى خلفية ذلك، يبدو أن هذا التنافس الثنائي مرّ بمرحلة عنف قبل الوصول إلى حلّ وسط حديث؛ فمنذ عام ٢٠٠٦م أصبح الجمود يتّخذ شكلاً من أشكال علاقة الردع التي تقوم على اعتراف ضمني متبادل بامتلاك كلا الطرفين القدرة على إلحاق خسائر كبيرة بالآخر في حال وجود تصعيد جديد بينهما. هذا النوع من التوازن في شكل القدرة على المواجهة هو نتيجة مبالغة كبيرة من حزب الله بشأن توازن الرعب الذي كان قائماً قبل الحرب، وكانت النصيحة التي أُسديت إلى حزب الله بخوض حرب استنزاف ضد إسرائيل أمراً موفّقاً؛ ففي نهاية الاحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان شرع حزب الله في تكتيك جديد قام فيه بإطلاق آلاف الصواريخ تجاه إسرائيل، فأدّى هذا التحرّش المستمر إلى شنّ عمليتين ضخمتين في لبنان في السابق: (المساءلة) عام ١٩٩٣م، و(عناقيد الغضب) عام ١٩٩٦م، نجا منهما

حزب الله. ومع ذلك، ومن المفارقات، أن انحسار الأعمال العدائية خلال المدة التي شهدت وقوع مناوشات بين الطرفين (٢٠٠٠- ٢٠٠٦م) كانت في مصلحة حزب الله. ولأن انسحاب إسرائيل عام ٢٠٠٠م نتج منه تغيير مساحي ومكاني كبير فقد يثير ذلك الظنون بأن إسرائيل فكّرت بشكل صريح في توجيه ضربة انتقامية كبيرة إبّان قتالها المتواصل بدرجة منخفضة حول مزارع شبعا، لكنها لم ترقَ إلى مستوى التطلّعات، وهو ما فوّت عليها الفرصة آنذاك، واستعاضت عن تلك الفكرة بإستراتيجية العين بالعين مع من تعدّها منظمةً إرهابيةً، واستطاع حزب الله بذلك استغلال ضعف قدرة إسرائيل على الإنكار في ذلك الوقت واستمر في المقاومة، وقاومت إسرائيل بإصرار يدفعها ويغذّيها التناقض الأيديولوجي مع العدو. ومما يدعم هذه الرؤية للمنافسة المتزايدة شعور إسرائيل بضرورة التحوّل بشكل حادّ عن سياسة الاحتواء السابقة. وكان ردّ فعل إسرائيل هذا أيضاً نتيجة اهتمامات معيارية ظهر فيها الإصرار على العقاب بوصفه علاجاً ضرورياً لحلّ معضلة حزب الله، حتى إن هذا الموقف وُضع في التقرير النهائي للجنة فينوجراد، وهو تحقيق رسمي أجرته الحكومة الإسرائيلية عن قيادة العمليات وأوجه قصورها خلال حرب لبنان عام ٢٠٠٦م[١٤].

لذلك كانت إسرائيل على استعداد للمجازفة وتغيير قواعد اللعبة المتّبعة، وكان هدف عقابها المفاجئ غير المتكافئ هو إرسال إشارة لا لبس فيها لرأب الصدع الذي حاول حزب الله استغلاله من خلال التحرّك خارج حدود المساءلة الوطنية والدولية. وعلى ضوء ذلك، قد تكون إسرائيل تعمّدت رفض أيّ قيود على تصرّفاتها من أجل: أولاً تذكير الحكومة اللبنانية بضرورة التزامها الحفاظ على سلامة أراضيها، وثانياً إضعاف قبضة حزب الله على الشعب اللبناني الذي اضطر إلى تحمّل العبء الأكبر للتدخل العسكري الإسرائيلي في لبنان. وكان الغرض من هذه الحرب انتزاع تنازلات من حزب الله من خلال تحدّي الطريقة التي دأب عليها الحزب، وهي السخرية من إسرائيل؛ ففي عام ٢٠٠٠م وصف نصر الله إسرائيل بأنها «بيت عنكبوت» واهن[١٥]. كما يعكس إصرار إسرائيل على تغيير قواعد اللعبة أيضاً تأثير حزب الله المتزايد في حماس في سياق اختطاف الجندي

(14) See the Winograd Commission's final report, released January 30, 2008, clauses 37, 38, and 39, available via the Council on Foreign Relations.
(15) Norton, *Hezbollah*, 133.

الإسرائيلي جلعاد شاليط عام ٢٠٠٦م، فضلاً عن شائعات حول توافر قدرات محتملة لدى حزب الله لتوجيه (ضربة استباقية) وشيكة لإسرائيل.

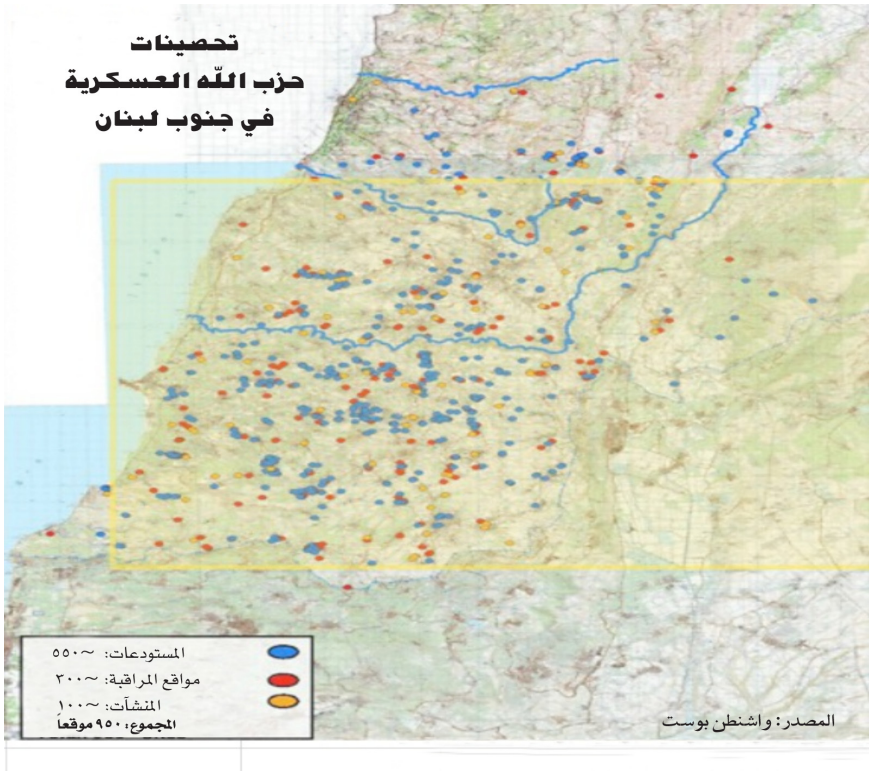

وأصبح من غير السهل التنبّؤ بتلك العلاقة الثنائية، وهو ما زاد من مخاطر التصعيد، وإذا أخذنا ما حدث في صيف عام ٢٠٠٦م مؤشراً لمزيد من التدهور وسوء التقدير فليس من المستغرب اتّهام حزب الله إسرائيل باستغلال غارته التي عبر بها الحدود ذريعةً كافيةً لشنّ هجوم عسكري[١٦].

ويبدو أن الهدوء الذي تلا حرب لبنان الثانية أكّد وجود بيئة متغيّرة يعمل فيها الثنائي المتنافس: حزب الله، وإسرائيل؛ فعتبة التصعيد التي بلغها الطرفان تتّسم بمعايير سلوكية

(16) Ibid., 154.

جديدة تعكس مفاهيم متغيرة، ويبدو ذلك واضحاً عندما نتذكّر عملية الاستخبارات الإسرائيلية في دمشق عام ٢٠٠٨م، التي راح ضحيتها عماد مغنية؛ الشخصية القيادية البارزة في حزب الله كما ذكرنا سابقاً[١٧].

ولم يكن من المستغرب تهديد حزب الله في ردّه الخطابي بالقيام بأعمال انتقامية، ويمكن عدّ إحجام الحزب عن اتخاذ أيّ خطوة انتقامية فعلية بعد ذلك خطوةً مدروسةً نحو استمرار علاقة مساومة حذرة وضمنية تسهم في نهاية المطاف في ضبط النفس بدلاً من إثارة تصعيد مضرّ، وينطوي هذا الحذر -إضافةً إلى ذلك- على إدراك القدرة المتبادلة للطرفين على المواجهة؛ فمن ناحية أدرك حزب الله أن إسرائيل أصبحت الآن عازمةً على التخلي عن ضبط النفس وتنفيذ العقاب، وهو الأمر الذي لم تجرؤ على القيام به في السنوات التي سبقت عام ٢٠٠٦م؛ فقيام إسرائيل باستخدام القوة غير المتكافئة حمّل حزب الله عبئاً زائداً قد تكون له تداعيات مستقبلية في حال تطور أيّ تصعيد، ومن ناحية أخرى مثّلت قدرة حزب الله على الإنكار، واستيعاب الخسائر، وإلحاق الأذى بجبهة العدو، عبئاً كبيراً على إسرائيل أيضاً؛ فالهدوء النسبي الذي يميز مشهد ما بعد الحرب على الحدود المشتركة بين حزب الله وإسرائيل يمثّل حقيقةً تقارب الطرفين من حيث التصورات والحسابات؛ إذ لا يرغب أيّ من الطرفين في إضعاف المعادلة الإستراتيجية، وأيّ تحرّك تجاه جولة أخرى من التصعيد سيثير عنفاً وربما تكاليف لا تُطاق. وأخيراً، وليس آخراً، من شأن ذلك إعادة صورة الفتك المتأصّل التي لا يمكن لأيّ من الطرفين تجاهلها إلى الأذهان.

٢أ- التأقلم الإستراتيجي: التدخّل والالتزام في سوريا

شمل أول التصريحات الرسمية لرئيس الوزراء نجيب ميقاتي في تتمّة رمزية لثورة الأرز عام ٢٠٠٥م، التي أبرزت تحالف ٨ آذار على الساحة منذ صيف عام ٢٠٠١م إلى ربيع عام ٢٠١٣م، الذي ضمّ عدداً كبيراً من الأحزاب، أن الأراضي اللبنانية تعاني تحت وطأة الاحتلال الإسرائيلي، ومن الواجب تحريرها. وعكس هذا التصريح التأثيرات الجانبية للوجود السوري في لبنان؛ فالتوترات بين الفصائل الموالية والمعارضة للأسد في لبنان

(17) Roi Kais, "Lebanese Probe: How Mughniyeh Was Assassinated," Ynetnews, February 19, 2013, http://goo.gl/Xjt62n.

استمرت في الاشتعال على خلفية الحرب الأهلية المستمرة في سوريا، ومثّل ذلك أيضاً مساراً متشابكاً جمع الدولتين المتجاورتين؛ فالعنف المتكرّر في الأراضي السورية قاد لبنان مرةً أخرى إلى حالةٍ من عدم الاستقرار.

مؤيدو حزب الله وبشار الأسد يرفعون الأعلام في لبنان (المصدر: بلال حسين، أسوشيتد برس).

في عام ٢٠١٣م كان على لبنان أن يواجه أحداث وقوع ثلاثة تفجيرات أدّت إلى سقوط ما يزيد على مئة ضحية، وجرح مئات آخرين، شملت هجوماً ضد السفارة الإيرانية في جنوب لبنان في ١٩ نوفمبر عام ٢٠١٣م، كما استهدفت الهجمات أهدافاً شيعيةً وسنيةً بالتناوب، وهو ما أشعل مزيداً من المخاوف من عمل انتقامي. وخلافاً لهجمات ٢٣ أغسطس التي حدثت في طرابلس، وفي أحد معاقل حزب الله في الضاحية الجنوبية ببيروت في ١٥ أغسطس، لم يُظهر تفجير السفارة الإيرانية استخداماً لأدوات تفجير من بُعد، بل نفّذ التفجير اثنان من الانتحاريين. وبالفعل، تبنّت كتائب عبدالله عزام الجهادية مسؤولية الهجوم، وهدّدت بمزيدٍ من الهجمات إذا لم تنسحب إيران من الصراع في سوريا. ومنذ ذلك الوقت دعا أنصار الشيخ السني المتطرّف أحمد القصير، المضطهد من الجيش اللبناني، إلى دعم اللبنانيين السنة إخوانهم على الأراضي السورية في معاناتهم. ويشير الاستياء العرقي الذي غُذِّي عمداً إلى نوعٍ من الشعور بالذنب، وضرورة (أخذ الثأر)؛ إذ يرى المتشدّدون السنة اللبنانيون أنه يتعيّن حسم ذلك مع حزب الله الشيعي، وفي المقابل لا

يخفي حزب الله حقيقة دعمه قوات بشار الأسد، وإمداده بالمقاتلين. وجاء تعهّد نصر الله العلني بالولاء للأسد بعد أيام قليلة من زيارته طهران في إبريل عام ٢٠١٣م[١٨]، وسوّغ نصر الله نشر قواته عبر الحدود بمحاربة متشدّدي السنة فقط حسب زعمه، الذين كانوا يشكّلون تهديداً للشيعة والمسيحيين اللبنانيين، كما أن سوريا الأسد يجب أن تظلّ حليفاً مهماً للحزب في مقاومة إسرائيل. لكن من الواضح أن السبب الرئيس وغير المعلن لدعم نصر الله دمشق هو أن طهران تعدّ دمشق في ظلّ نظام الأسد من أهم أنصار حزب الله، وفي حالة سقوط نظام الأسد سيتزعزع وجود حزب الله الإستراتيجي في لبنان ويضعف بشكل ملحوظ. وفي المقابل، تمثّل مشاركة قوات حزب الله في سوريا أهميةً بالغةً لنظام الأسد في قتاله مع الأطياف المتزايدة من القوات المناهضة للنظام. وفي السياق الإستراتيجي الأوسع، سيكون لاحتفاظ الأسد بالسلطة تأثير إقليمي مطلق؛ فالإمدادات الإيرانية من الأسلحة التي تمرّ عبر سوريا إلى جنوب لبنان بالقرب من الحدود الإسرائيلية ستعزّز المحور الشيعي الممتد من طهران عبر بغداد وصولاً إلى أقصى المناطق الجنوبية في لبنان.

إضافةً إلى التوترات الطائفية المتزايدة على طول الحدود اللبنانية السورية الممتدة بطول ٣٦٥كم من دون معالم واضحة فإن المقاتلين من مختلف الفصائل يستطيعون التحرك بحرية تامة بشكل أو بآخر في كلا الاتجاهين، بينما تتعرّض القرى والبلدات الحدودية للقصف بصواريخ آتية من سوريا. ومنذ الهجوم المزدوج على مسجدين للسنة في طرابلس في أغسطس عام ٢٠١٣م، الذي أدّى إلى مقتل خمسين شخصاً، وجرح ما يزيد على خمسمئة آخرين، تفاقمت التوترات الداخلية اللبنانية، خصوصاً بعد إصدار القضاء اللبناني عدة مذكرات توقيف تتعلّق بتلك القضية، منها مذكرة ضد علي عيد رئيس الحزب العربي الديمقراطي الموالي للأسد، الذي ينتمي إلى الطائفة العلوية، والذي يُقال: إنه ساعد المخابرات السورية في إطار التحضير للهجوم، وهو ما يدعم فرضية واسعة الانتشار بأن الأسد لا يزال يستعين بشبكة حصينة في الدولة المجاورة. في المقابل، يكاد يكون من المستحيل المضيّ قدماً في محاولة نزع سلاح الجماعات المسلحة غير التابعة للدولة في لبنان، على الأقلّ ما دام حزب الله يواصل استخدام السلاح في جهوده للإبقاء على مقاومة إسرائيل.

(18) "Nasrallah Met Khamenei in Iran, to Make Speech May 9," *Daily Star* (Lebanon), April 22, 2013, http://goo.gl/TbxFB2.

٢ب- أسلوب العمل الإستراتيجي: المحافظة على البُعد الإستراتيجي للمعسكر الشيعي الدولي الموالي للأسد

- معارك الزبداني (٢٠١٢- ٢٠١٥م):

كانت مدينة الزبداني خلال السنوات الأربع الماضية، وهي مدينة تقع في الجبال مُحاطة بوادٍ خصيب على مقربة من الحدود اللبنانية، مسرحاً لقتال شديد ومتكرّر بين الجيش السوري الحر وقوات الجيش العربي السوري، ومن ناحية إستراتيجية كانت هي المدينة الأولى التي سقطت كلّها تحت سيطرة الجيش السوري الحر في أوائل يناير عام ٢٠١٢م، وأحدثت أيضاً ضجةً كبيرةً عندما تردّدت أنباء أوّلية تفيد بمساعدة نشيطة من مقاتلي حزب الله للقوات الحكومية على استعادة المدينة، التي تمّت في منتصف شهر فبراير عام ٢٠١٢م. ومنذ ذلك الوقت استمرت الزبداني تعاني الدمار والأضرار متأثرةً بظهور أنشطة الثوار والعمليات القتالية من القوات الموالية للحكومة. وكانت الاشتباكات التي تكرّرت مراراً داخل المدينة في يوليو عام ٢٠١٥م هي الأشد ضراوةً، لكن مع حلول ذلك الوقت تغيّر الواقع في ساحة المعركة في منطقة الزبداني بشكل جذريّ عن الوضع الذي كان عليه قبل ثلاث سنوات ونصف السنة؛ فقد تنامت بشكل كبير أعداد الجماعات المنشقة العاملة في الميدان، ومع أن الجيش السوري الحر كان يمثّل كتلةً متماسكةً نسبياً تعمل في جميع أنحاء الزبداني في المراحل الأولى للصراع إلا أنه بحلول عام ٢٠١٥م أصبح هناك موطئ قدم راسخة للمقاتلين الإسلاميين في الزبداني وجبال القلمون التي تشكّل منطقة الحدود السورية اللبنانية؛ مثل: جبهة النصرة، وهي فرع تنظيم القاعدة في سوريا، وأحرار الشام، وجيش الإسلام، والجبهة الإسلامية، وتنظيم داعش؛ لذلك يمكن أن يُنظر إلى التسلسل الفعلي لأحداث معركة الزبداني في صيف عام ٢٠١٥م بوصفها نتيجةً مهمة، لكنها منطقية، لنهج حزب الله في الأشهر التي سبقت الهجوم العسكري الأساسي للاستيلاء على الزبداني؛ ففي شهري مايو ويونيو عام ٢٠١٥م خاض حزب الله حرباً كبيرةً على امتداد القلمون؛ إذ أدركت جميع الفصائل المشاركة أهمية هذه السلسلة من الجبال؛ فهي توفّر ملاذاً مرتفعاً، ومنطقة مراقبة يمكن من خلالها شنّ هجمات مستقبلية؛ فمن ناحية كانت عمليات حزب الله موجّهة لاحتواء توغّل المقاتلين المعادين للنظام والفصائل الإسلامية الأخرى في الأراضي اللبنانية، إضافةً إلى وقف التدفق المستمر للإمداد اللوجستي والأسلحة والتعزيزات إلى

الجبال، ومن ناحيةٍ أخرى، ومن منظور الميليشيات الشيعية، كان الاستيلاء على الزبداني مرةً أخرى في ٣ يوليو عام ٢٠١٥م خطوةً منطقيةً في محاولة أوسع لوصل النقاط، وتأمين المناطق التي تقع ضمن نفوذ القوات الموالية للأسد الممتدة من دمشق إلى سفوح القلمون وإلى الحدود الغربية للبنان. وبحلول سبتمبر عام ٢٠١٥م استطاع مقاتلو حزب الله وقوات الجيش العربي السوري تشتيت القوى المعارضة، وإحكام قبضتهم على مدينة الزبداني والمناطق المحيطة بها. وعلى الرغم من التوصّل إلى وقفٍ لإطلاق النار بين المعارضة والقوات الحكومية السورية بوساطة تركية وإيرانية، وبدعم من الأمم المتحدة، وهو ما خفّف بشكل فعّال من الاشتباكات المستمرة، ووضع حداً لأعمال العنف في الزبداني، إلا أن هذا الأمر سمح لحزب الله بتحويل اهتمامه إلى مهاجمة البؤر المتبقية للمعارضة الإسلامية المسلحة في المناطق الأخرى على طول الحدود اللبنانية السورية. وعلى المنوال نفسه، مهّدت نتائج الهجوم الطريق لحملة إعلامية محسوبة لإظهار قدرة النظام وحلفائه على إملاء شروطهم على مسار الأحداث، لكن العبء المتزايد الذي اقتسمه الحليفان بالتساوي أظهر ضرورة بقاء مقاتلي حزب الله لتعزيز موطئ قدم النظام في جنوب غرب سوريا، وهو من الأمور التي لم يتم الإعلان عنها.

أنشطة الجناح العسكري لحزب الله على الأراضي السورية

- **معركة القصير (٢٠١٣م):**

لم يكن إعلان حسن نصر الله ولاءه للأسد في ربيع عام ٢٠١٣م مجرد تأييد لفظي لنظامه، بل على العكس تماماً، فقد حوّل نصر الله الخطاب إلى فعلٍ عندما اتّخذ مقاتلو حزب الله موقع الصدارة بوصفهم فصيلاً رسمياً يحارب في سوريا. ومن المؤكّد أن الميليشيا الشيعية كانت تحارب بالفعل منذ عام ٢٠١٢م بعد اندلاع الحرب الأهلية إلا أنها خلال ذلك الوقت عملت بشكل سرّي. وشكّلت معركة القصير، التي اندلعت في أوائل شهر إبريل عام ٢٠١٣م، اختباراً لصمود حزب الله على أرض المعركة، وقدّمت أفكاراً للحزب بشأن الخطوات العسكرية اللاحقة التي اتّخذتها الميليشيا الشيعية اللبنانية إلى يومنا هذا؛ فمن ناحيةٍ إستراتيجية تقع القصير في المنطقة المجاورة مباشرةً لمفترق طرق على الطريق السريع رقم (٥) الذي يصل دمشق بمحافظتي اللاذقية وطرطوس في الشمال الغربي عبر حمص، والطريق السريع رقم (٤) المؤدي إلى بعلبك في لبنان، الذي يقطع وادي البقاع اللبناني؛ تلك الأرض الخصيبة التي نبت فيها حزب الله في بدايات ثمانينيات القرن الماضي، وهو ما يعطي القصير هذا الوزن الإستراتيجي الواضح، كما هو حال الزبداني تماماً، التي تربط لبنان وسوريا في الجنوب؛ لذا فالتحكّم في القصير يحافظ على حلقة الوصل مع وادي البقاع، والسيطرة على رقعةٍ من الأرض تمتدّ شمالاً إلى المحافظات الساحلية للبحر المتوسط التي تشكّل معقل العلويين. وقد لجأ نظام الأسد فعلياً إلى مزيج من القوات النظامية التي تقاتل إلى جانب حزب الله على الأرض لتصعيد المقاومة ضد الثوار، ضمّت عناصر كثيرة من الفرقتين الثالثة والرابعة[١٩]، ووحدة المشاة الميكانيكية من الحرس الجمهوري السوري. واستمرّ الحصار المستميت للقصير أسبوعين ونصف الأسبوع، تقدّم خلاله مقاتلو حزب الله بشكل حاسم نحو مركز المدينة في بداية شهر يونيو عام ٢٠١٣م على الرغم من المقاومة المستمرة لمختلف ألوية الثوار، ومنهم أفراد من كتائب الفاروق وكتيبة قاسيون. ووردت أنباء عن تمركز مقاتلي جبهة النصرة في أرض المعركة أيضاً، مع وجود مبالغات في الإعلام عن دورهم من حيث العدد والأهمية

(19) Jeffrey White, "The Qusayr Rules: The Syrian Regime's Changing Way of War" (Policywatch 2082, Washington Institute for Near East Policy, Washington, DC, May 31, 2013), http://goo.gl/pTHpwQ.

التكتيكية[٢٠]. في نهاية المطاف، كبّدت القوات الموالية للحكومة قوات الثوار هزيمةً ثقيلةً عندما اضطر الثوار إلى الانسحاب من المدينة عشية الخامس من يونيو عام ٢٠١٣م، ووصف قائد الثوار العقيد السوري عبدالجبار العكيدي الحديث عن تجربته ومشاهداته في القصير بأنه كفيل بأن يملأ مجلدات، وقال: «كانت قوة النيران هائلة، لم أرَ مثلها قطّ في حياتي»[٢١]، مشيراً إلى القوة الجوية التي استخدمتها القوات الحكومية إلى جانب قوات حزب الله التي كانت تقاتل على الأرض بلا هوادة.

قدّم النصر الحاسم الذي تحقّق في القصير نظرةً عن الإستراتيجية التي اتّبعها حزب الله؛ فقد استغلّت وحداته شبه العسكرية من الناحية التكتيكية -من دون شكٍّ- حقيقة وجود مجتمع شيعي سوري كبير في المناطق النائية بين القصير والحدود اللبنانية؛ فأثبت الحزب -في هذا السياق- مهنيته بإنشاء نظام واسع النطاق يتكوّن من جيوب متطورة خفيفة الحركة لأغراض الدفاع تمثّل مرافق للإيواء والتخزين، كما استغلّ الحزب بطريقة تكتيكية مماثلة الوضع الطبوغرافي للأرض؛ إذ شكّل المشهد الجبلي والأحراج الكثيفة عاملاً حاسماً في عمليات حرب العصابات التي يقوم بها الحزب، ومكّنه بسرّيةٍ وتمويهٍ من إنشاء عدد كبير من مقرات القيادة، واعتمد الحزب على خبرته التي تزيد على عشرين عاماً في العمليات القتالية الخاطفة ضد إسرائيل داخل بيئته الطبيعية (جنوب لبنان)، وتمكّن من المزج بين أساليب الحرب التي تجمع «النقيضين من خطّ ماجينو والفيتكونغ»[٢٢]؛ فمن ناحيةٍ كان حزب الله قادراً على الوصول إلى أسلحة معدّة فقط للجيوش النظامية تحت إشراف جهات حكومية[٢٣]، واستطاع الحزب بسبب طابع تصرّفه بالوكالة الاستفادة من الخبرة التي يتمتّع بها الحرس الثوري الإيراني والمستشارون

(20) "Syria Update: The Fall of Al-Qusayr" (Institute for the Study of War, Washington, DC, June 6, 2013), http://goo.gl/2f9t0b.

(21) Richard Spencer, "Syria: Rebels Heed Lesson of Qusayr to Drive Back Assad Forces in Aleppo," *Telegraph*, June 23, 2013, http://goo.gl/rnJuf6.

(22) Jeffrey A. Friedman and Stephen Biddle, *The 2006 Lebanon Campaign and the Future of Warfare: Implications for Army and Defense Policy* (Carlisle, PA: Strategic Studies Institute, 2008), 14.

(23) Benny Gantz, "Only a Handful of States Have More Firepower than Hezbollah," *Jerusalem Post*, June 9, 2014, http://goo.gl/Y95poa.

السوريون على مستوى إصدار الأوامر والمراقبة[٢٤]، وهو ما كانت له آثار مفيدة في الانضباط، والبنية الهرمية، والتكنولوجيا، والتخفّي من خلال عمليات تضليلية لمكافحة التجسّس[٢٥]، ومن ناحيةٍ أخرى ما زالت لدى حزب الله عناصر متطوّرة من العصابات التكتيكية غير النظامية، كما طوّر الحزب قدرته على الاختفاء في المناطق المدنية، وإخفاء فرق التشغيل والمعدات بين مرافقها، وهو ما مكّنه من إيجاد مساحات للاختفاء والانتشار؛ لذلك انخفض مستوى التعرّض المباشر للخطر في الميدان.

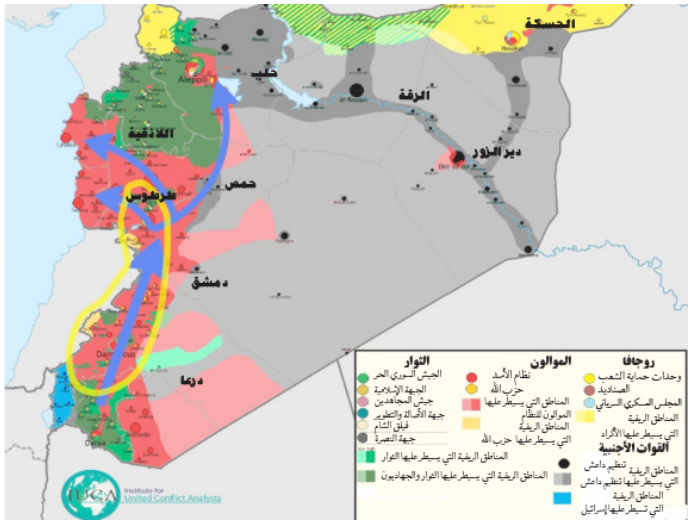

جهود حزب الله في تعزيز المناطق العلوية (المصدر: معهد تحليل الصراعات المتحدة)

إذا استعدنا الأحداث الماضية سندرك أن المعارك التي جرت في الزبداني والقصير دليل على أهمية حزب الله في تأمين المحاور الجغرافية لضمان بقاء النظام السوري؛ فقد استطاع الحزب من خلال السيطرة على هذه المفاصل الإستراتيجية على الحدود اللبنانية- السورية تأمين وضعٍ يسمح له بالمحافظة على خطوط الإمداد من إيران وسوريا إلى معاقله في لبنان.

(24) Cordesman, *Arab-Israeli Military Forces*, 262.
(25) Mark Perry and Alastair Crooke, "How Hezbollah Defeated Israel: Winning the Intelligence War," *Asia Times*, October 12, 2006, http://goo.gl/epI9eE.

وتعدّ جهود حزب الله الناجحة عامي ٢٠١٢ و٢٠١٥م للتخفيف من حدة الفوضى المتزايدة في محافظتي حمص والقلمون جزءاً من مخطط إستراتيجي أوسع يصرّ على تنفيذه النظام السوري وحليفه بالوكالة، ويتضمن: أولاً: الحفاظ على البُعد الإستراتيجي من خلال تأمين طرق حيوية للعبور تربط بين العاصمة دمشق والباحة الخلفية الإستراتيجية لها في لبنان، وثانياً: دعم صمود حزب الله من أجل الحفاظ على السيطرة على الأراضي التي تربط بين المناطق الساحلية العلوية في الشمال والمحيط الجنوبي الغربي على الحدود اللبنانية حيث يمتد نفوذ الحزب.

آفاق مستقبلية

تكشف الحرب المستمرة في سوريا، التي امتدت إلى لبنان، حقيقةً واضحةً، هي أن حزب الله منشغل الآن؛ فإذا حدث تصعيد آخر مع إسرائيل فقد يضطر الحزب إلى التعامل مع جبهتين، ومن شأن ذلك أولاً: تشتيت الحزب وإنهاك قدراته بشكل كبير، وثانياً: أن تنفيذ أيّ حملة عسكرية إسرائيلية مشابهة لتلك التي حدثت في صيف عام ٢٠٠٦م سيدفع لبنان إلى حافة الانهيار. وقد صرّح حسن نصر الله في خطابٍ له في مايو عام ٢٠١٣م بأن المعارضة السورية لم تكن بالتأكيد «ثورة شعبية ضد نظام سياسي»، وأن خصوم الأسد ما هم في الواقع إلا أعوان للولايات المتحدة الأمريكية، أو ذراع ممتدة للقاعدة، هدفهم الأساسي تحقيق (المشروع الإسرائيلي) في المنطقة؛ لذلك كان تدخّل حزب الله في سوريا أمراً منطقياً وضرورياً من وجهة نظره. وشرع نصر الله بذلك ماضياً على درب الخطر، وهو إذ يفاخر في جميع أرجاء المنطقة بإنجازاته التي أجبرت إسرائيل على الانسحاب من جنوب لبنان عام ٢٠٠٠م، ومقاومته التوغّل الإسرائيلي عام ٢٠٠٦م، فقد ضاعف الآثار السلبية للاضطرابات في المنطقة، ووضع ميليشيا الحزب نفسها في موقف ضعيف بتدخّلها الصريح في سوريا منذ عام ٢٠١٣م؛ لذلك لا يمثّل تورّطه في بلاد الشام تحقيقاً لأهداف إستراتيجية فحسب، بل يتعلّق أيضاً بمسألة وجود الحزب؛ فقد بذل جناحه المسلّح جهوداً كبيرةً، وتكبّد كثيراً من الخسائر على أرض المعركة السورية. وليس من المفاجئ ظهور تقارير عن جهود هذه المنظمة الشيعية في حشد الدعم من خلال مبادرةٍ للتجنيد داخل المجتمع الشيعي في جنوب لبنان؛ إذ يبدو أن نشر قواتها في الأراضي السورية شكّل ضغطاً

كبيراً على قدرات وحدة المشاة لدى الحزب، وقد أكّدت المصادر مقتل ألف مقاتل من مقاتلي حزب الله منذ اضطلع الحزب بدورٍ له في سوريا، ومن ضمن الضحايا عدد متزايد من كبار المسؤولين، ووفقاً لأحد التقارير -على سبيل المثال- «لقي حسن حسين الحاج، وهو من القيادات البارزة في الحزب، مصرعه في أكتوبر [عام ٢٠١٥م] وهو يقاتل في محافظة إدلب. وقتل خلفه مهدي حسن عبيد هناك بعد بضع ساعات من دفن الحاج في بلدته في جنوب لبنان»[٢٦]. كما أُسر فوزي أيوب، وهو من قادة حزب الله المخضرمين، ويحمل الجنسيتين: اللبنانية، والكندية، على يد الجيش السوري الحر في مايو عام ٢٠١٤م في المعارك المستمرة في حلب شمال غرب سوريا. وقتل جميل حسين فقيه -القائد الميداني الأعلى لدى حزب الله، والمسؤول عن العمليات العسكرية في الجيب الشيعي في محافظة إدلب- في يوليو عام ٢٠١٥م، وقُتل حسان اللقيس -القائد الذي شارك في الإشراف على هجوم الميليشيات على القصير في صيف عام ٢٠١٣م- في ديسمبر من العام نفسه بالقرب من منزله في بيروت. وما كان مقتل سمير قنطار في ضواحي دمشق في ١٩ ديسمبر عام ٢٠١٥م، ومقتل جهاد مغنية قائد جبهة الجولان السورية التابعة للحزب ومحمد علي الله دادي الجنرال الإيراني البارز في قوة القدس التابعة للحرس الثوري في ١٢ يناير عام ٢٠١٥م في غارة جوية إسرائيلية حسب الأنباء الواردة، إلا إضافات إلى قائمة متزايدة من خسائر كبيرة من الصعب على حزب الله تحمّلها.

ويدلّ ذلك كلّه على أن الصراعات الكبرى لحزب الله تحمل طابعاً متشابكاً في جوهرها؛ إذ يتوقّع منه ناخبوه تمسّكه بمصداقية موقف الردع غير المتكافئ مع إسرائيل في جنوب لبنان؛ لذلك قام الحزب بالردّ وتفجير قنبلة في الرابع من يناير عام ٢٠١٦م استهدف بها عربات إسرائيلية مدرّعة على مقربة من مزارع شبعا المتنازع عليها. ومع ذلك، وعلى الرغم من قدرة حزب الله على اللجوء إلى ترسانة الصواريخ الهائلة لديه لهذا الغرض إلا أنه من المستبعد أن يحتمل الحزب الدخول في جولة أخرى من التصعيد؛ فليس من الحكمة انتهاك قواعد اتفاقية الردع التي أُبرمت بشكل مؤلم في صيف عام ٢٠٠٦م؛ لأن النفوذ السياسي والعسكري للحزب محدود بسبب التضحيات التي قام بها على جبهته الغربية؛

(26) AP, "Suffering Heavy Losses in Syria, Hezbollah Entices New Recruits with Money and Perks," *Haaretz*, December 19, 2015, http://goo.gl/hW1Kkd.

فهو يشنّ في سوريا حرباً شاملةً ضد أعداد متزايدة من القوات المعارضة للنظام؛ لذلك يُتوقع مواصلة الحزب تمسّكه بنوع من الحياد الضمني المحسوب على جبهته الجنوبية، حتى لو تضمّنت بياناته العلنية على مدى السنوات التسع الماضية خلاف ذلك. وفي الوقت ذاته، يبدو أن وجود حزب الله في سوريا سيستمر؛ لأن المشاركة الروسية منذ سبتمبر عام ٢٠١٥م أضافت زخماً من المكاسب للموالين للأسد كافةً. ومن المتوقّع في المستقبل القريب أن يرتقي حزب الله إلى مستوى التطلعات التي لا تُمليها عليه طهران ودمشق فحسب، بل موسكو أيضاً؛ لذلك سيستمر الحزب -على الأرجح- في المشاركة فاعلاً أساسياً في تقاسم العبء العسكري، وتحقيق أهداف هذا الحلف على الأراضي السورية.

يبقى لنا أن نرى إذا كانت إسرائيل، التي تتّخذ موقف الحذر حالياً، ستقوم بعمل عسكري صارم ضد تلك الميليشيا على ضوء تراجع قوة الردع الحالية بسبب ضعف حزب الله، أم سيبرز حزب الله إلى الساحة في نهاية المطاف عنصراً فاعلاً في مستقبل سوريا المقسّمة. كلا الاحتمالين وارد، وسيحدّد كلّ منهما مستقبل الجناح العسكري، والحزب السياسي، والراعي، التي تشكّل العوامل التي صنعت حزب الله؛ فعلى أقلّ تقدير: نرى الازدواجية الكامنة في موقف حزب الله من حيث صعوبة التحدي الذي يواجهه، ومدى تعقيده فيما يتعلّق بوقف المدّ في الجبهتين الجنوبية والغربية، وعدم انزلاقه في منحدري: المقاومة المذهبية من جهة، والتكيّف الإستراتيجي في المسرح السوري من جهة أخرى.

نبذة عن الباحث

باحث مقيم في إدارة البحوث بمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية. حصل على شهادة البكالوريوس عام ٢٠١٣م في مجال العلوم السياسية والقانون من جامعة ميونخ ومعهد العلوم السياسية في باريس، ونال في يناير عام ٢٠١٥م درجة الماجستير في الاستخبارات والأمن الدولي من قسم دراسات الحرب في جامعة كينجز كوليدج لندن. عمل متدرّباً في السفارة الكندية في ألمانيا، ومستشاراً للشؤون الاقتصادية في مكتب العلاقات الألمانية – السعودية بالرياض قبل انضمامه إلى مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، وهو يعيش في المملكة العربية السعودية منذ فبراير عام ٢٠١٥م. ويعمل في إدارة البحوث على مشروع الصراع في سوريا، وتدخّل روسيا وإيران وحزب الله في سوريا.

نبذة عن مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية

تأسّس سنة ١٤٠٣هـ، ومقرّه الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية. ويقوم المركز بعدة أنشطة، منها: المحاضرات، والندوات، والمؤتمرات، وحلقات النقاش. كما يحتضن المركز مكتبة الملك فيصل، ومجموعة مخطوطات نادرة، ومتحفاً إسلامياً، وقاعة الملك فيصل، والباحثين الزائرين. ولأن أساس العمل في المركز هو البحث العلمي فقد تم إنشاء إدارة البحوث سنة ١٤٣٤هـ للقيام بتحليلات متعمقة حول القضايا السياسية المعاصرة، والدراسات السعودية والإقليمية، ودراسات اللغة العربية والحداثة. ويقوم المركز بالتعاون مع مراكز الأبحاث الأخرى في مختلف دول العالم في مجال تخصصه.

ويهدف المركز إلى أن يكون مصدر إشعاع للإنسانية تحقيقاً لتصوُّر الملك فيصل ابن عبدالعزيز رحمه الله، عبر القيام بالبحوث والدراسات، وحفز الأنشطة الثقافية والعلمية إلى ما يخدم البشرية، وإثراء الحياة الثقافية والفكرية في المملكة العربية السعودية، والعمل بوابةً وجسراً للتواصل شرقاً وغرباً.

ويترأس مجلس إدارة المركز صاحب السمو الملكي الأمير تركي الفيصل بن عبدالعزيز، وأمينه العام الأستاذ الدكتور يحيى محمود بن جنيد.

مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية
King Faisal Center for Research and Islamic Studies

P.O.Box 51049 Riyadh 11543 **Kingdom of Saudi Arabia**
Tel: (+966 11) 4652255 Ext: 8692 Fax: (+966 11) 4577611
E-mail: research@kfcris.com